كيف أنقد و على أىّ أساس

بقلم الدكتور محمد مندور

لم يتكون مذهبى فى النقد نتيجه لدراساتى الادبيه فى مصر والخارج وحدها ، بل اشتركت تجاربى فى الحياة أيضا فى تكوين هذا المذهب ولذلك يصح القول بأنه قد تطور مع اتساع تجاربى فى الثقافة والحياة شيئا فشيئا على مر الايام وعلى ضوء مزاولتى الفعلية للنقد خلال العشرين عاما الاخيرة .

ففى اوائل حياتى العملية بالجامعة وعند عودتى من الخارج فى سنة ١٩٣٩ كنت ماخوذا بعلم الجمال اللغوى الذى عمقت قيمة فى نفسى قراءاتى المتصلة فى الاداب اليونانية واللاتينية القديمة والفرنسية قديمها وحديثها خلال سنوات الدراسة التسع التى قضيتها فى جامعة السوربون بباريس ولذلك لم اكد اعود من الخارج وابدا الكتابة فى مجلتى « الثقافة » و « الرسالة » حتى رايتنى احفل اولا وقبل كل شىء بالقيم الجمالية اللغوية فى الادب عامة والشعر خاصة لانه المجال الذى نلمس فيه بوضوح هذه القيم الجمالية .

والناقد الذى يبحث عن القيم الجمالية قبل كل شىء لا بد أن يكون ناقدا تاثريا أى يعتمد فى نقده أساسا على الانطباعات التى تخلفها الاعمال الادبية على صفحة روحه ، وعن هذا المذهب صدرت فى كتاباتى النقدية الاولى

فدرست تاريخ النقد عند العرب القدماء فى كتابى (النقد المنهجى عند العرب) على ضوء هذا المذهب التأثرى . وفضلت من نقاد العرب القدماء من أوتى الذوق المثقف المستنير الذى يستطيع أن يحس بالقيم الجمالية فى الشعر وأن يهدينا اليها مثل « الآمدى » فى كتابه عن الموازنة بين الطائيين أى بين البحترى وأبى تمام، ومثل « القاضى عبد العزيز الجرجانى » فى كتابه (الوساطه بين المتنبى وخصومه) بينما سفهت المقاييس والتعاريف والتقسيمات الشكلية العقيمة التى ظن بعض نقاد العرب القدماء مثل «ابن قتيبة» و«قدامة ابن جعفر» و«أبى هلال العسكرى» أنهم قد وجدوا فيها عكاز الاعمى .

وعن نفس المذهب صدرت فى نقدى لعدد من الادباء والشعراء المعاصرين ، وفضلت ما سميته بالشعر المهموس عند المهجريين من أمثال : نعيمة ، ونسيب عريضة وغيرهما ، على الشعر الخطابى التقليدى عند عدد من شعرائنا المعاصرين على النحو الذى يستطيع القارىء أن يلم به فى كتابى « فى الميزان الجديد » الذى جمعت فيه ما كتبت من مقالات فى تلك المرحلة الاولى من حياتى ، وفيها تطبيقات عدة لهذا المذهب التأثرى كما أن فيها دفاعا حارا عنه ضد من هاجموه عندئذ ، كأنصار المذهب النفسى فى النقد وهو المذهب الذى يهتم بالاديب أو الشاعر أكثر من اهتمامه بانتاجه الادبى أو الشعرى كفن لغوى جميل . وأنا بالبداهة لم أنكر فى تلك المرحلة حق الناقد بل واجبه فى تفسير الاعمال الادبية فى ضوء الحالة النفسية للاديب ومقومات تلك الحالة ، ولكننى أنكرت على النقاد ولا أزال أنكر أن يستعيروا فى النقد الادبى منهجا يأخذونه عن أى علم آخر ، وذلك لأن للنقد ـ ويجب أن يكون ـ منهجه الخاص النابع من طبيعة الادب ذاتها ، كما أننى لم أنكر أيضا حق الناقد بل واجبه فى توسيع ثقافته بحيث تشمل الدراسات النفسية والتاريخية والاجتماعية بل والعلمية أيضا ، ولكننى أنكرت عليه ولا أزال أنكر أى محاولة لاقحام نظريات تلك العلوم على الادب والادباء ومحاولة الباسها للادباء قسرا على نحو ما حاول بعض نقادنا الباس النرجسية أو غيرها مثلا لهذا الشاعر أو ذاك بحجة أنه قد أبدى فى بعض شعره اعجابا بنفسه ، أو أحد المركبات الفرويدية المعروفة

لان شاعرا كأبى نواس قد تغزل فى الخمر بما يشبه الغـــزل فى المرأة ، وأمثال ذلك. وقد أوضحت فى ميزانى الجديد كيف أن مهمة الناقد الاساسية هى البحث عن الاصالة الفـــرديه المميزة لكل كاتب كبير . مؤكدا أن الافـــراد لا يمكن أن ينطووا تحت نمـــاذج نظريةمجردة، وأن لكل فرد ممتاز اصـــالته المتميزة ،واذا كانت أوراق الشجرة الواحدة لا يمكن أن تتطابق تطابقا تامافكيف يمكن أن يتطابق الممتازون من البشر ذلك التطابق التام الذى يزعمه علماء النفس أحيانا عنـــدما يقسمون البشر الى نمـــاذج محصـــورة ويضعونهم فى خامات ، والنقـــد الادبى فى أدق تعريفاته هو اولا وقبل كل شىء فن تمييز الاساليب باعتبار أن أسلوب الرجل هـــو الرجل نفسه . وهناك مفـــارقات لا تنتهى بين كل نوع نظرى من أنواع الاســـاليب فالاســـلوب الساخر مثلا منه المر ومنه الحلو ومنه المتشائم ومنه المتفائل ومنه المداعب اللطيف ، ومنـــه المتهكم القاسى ومنه المستخف بالحياة ، ومنه الحريص عليها الباكى منها خلف سخريته ، وكذلك الامر فى كافةالاساليب.والناقد الناجح هو الذى يحس بهذه المفـــارقات ويبرزها ليميز كاتبا كبيرا عن آخر وبذلك يحدد اصالته ولونه النفسى المتميز عن ألوان النفوس الاخرى .

والنقد التأثرى ما زلت أعتقد أنه الاساس الذى يجب أن يقوم عليه كل نقد سليم وذلك لاننـــا لا يمكن أن ندرك القيم الجمالية فى الادب بأى تحليل موضـــوعى ولا بتطبيق أية أصول أو قواعـــد تطبيقا آليا والا لجـــاز أن يدعى مدع أنه قد أدرك طعم هـــــذا الشراب أو ذاك بتحليله فى المعمل الى عناصره الاوليه وانمـــا تدرك الطعوم بالتـــــذوق المباشر ، ثم نستعين بعد ذلك بالتحليـــــل والقواعد والاصول فى محـــاولة تفسير هذه الطعوم وتعليل حلاوتها أو مرارتها على نحو يعين الغير على تذوقها والخروج بنسبجه مماثله للنسيجة التى خرج بهـــا الناقد بفضل ملكته التذوقيـــة المدربة المرهفة السليمة التكوين .

❖ ❖ ❖

ثم حدث بعد ذلك أن تركت الحياة الاكاديميه فى الجامعـــة لاعمل فى الحياة العـــامة حيث خالطت الناس وتلقيت دروسا مباشرة من الحياة لا تقـــل أثرا وتأثيرا فى تكوينى النـــفسى عما تلقيت من دروس فى الجامعـــات

أو قرأت من كتب داخل الجدران وبتأثير هذه الدروس الجديدة أخذت آفاقى النقدية تتسع وتتطور شيئا فشيئا دون أن أتنكر للمرحلة السابقة من حياتى العملية ، فقد ظللت حتى اليوم أحرص على القيم الجماليه فى الادب عامة والشعر خاصة ولكننى اخذت أزداد اهتماما بالحياة ، وأخذ احساسى يزداد شيئا فشيئا بأنه لا ينبغى أن يظل الادب والفن متاعا للخواص ولمتذوقى الجمال من الممتازين من الناس ، بل يجب أن يساهم الادب والفن فى خدمة الحياة وجعلها أفضل وأسعد وخيرا مما هى ، وصاحب هذه المرحلة الوسطى من حياتى اطلاعى على أنواع جديدة من الادب تطورت فيها الاصول الادبية والفنية الكلاسيكية وأخذت تحل محلها أصول جديدة تماشى الفلسفة الجديدة للادب والفن وهى الفلسفة المعروفة بالفلسفه الواقعية المتفائلة المتفانية فى خدمة الحياة والاحياء، وكان لاشتغالى بتدريس بعض فنون الادب الموضوعية مثل فن الادب المسرحى ونقده خلال سنوات طويلة أثر واضح فى هذا التطور على نحو ما هو محسوس فى بعض كتبى اللاحقة مثل كتاب (فى الادب والنقد) وكتاب (الأدب ومذاهبه) واخيرا كتاب (قضايا جديدة فى أدبنا المعاصر) ، والى هذه الفترة ترجع مقالاتى التى أيدت فيها بعض أدبائنا الشبان فى خروجهم على بعض الاصول الكلاسيكية فى التاليف المسرحى عندما اهتدوا بفطرتهم وبوحى من ضرورات الحياة المعاصرة فى بلادنا الى صور جديدة من التاليف المسرحى مثل: الاوتشرك ، والمسرح الملحمى وهى صور لا تبنى على حدث محدد الابعاد موحد الموضوع بقدر ما تعرض نتيجة دراسة المؤلف لمشكلة معاصرة ، أو تعرض هذه المشكلة فى ذاتها لتستصدر من المشاهدين حكما عليها .

ثم أخذت أحس بأن نظرية الفن للحياة لا للفن قد أخذت تغرى بعض الشبان باهمال القيم الجمالية والاصول الفنية فى سبيل الهدف الخير الذى يقصدون اليه وبذلك لا يعود الادب أدبا ولا فنا بل يصبح شيئا آخر قد يكون سياسة أو اجتماعا أو فلسفة ولكنه ليس أدبا ولا فنا كما قلت ، فدفعنى احساسى الحاد بالمسئولية الى أن أحاول اعادة التوازن فى نقدى بين المرحلة الجمالية الاولى والمرحلة الحيوية

الوسطى وحاولت أن أبلور منهجى المتكامل فى النقد فى سلسله من المقالات التى نشرتها فى جريدة الشعب عن النقد الايديولوجى مؤكدا أن هذا النقد لا يمكن أن يهمل القيم الجمالية والاصول الفنية المرنة للادب والفن ولكنه يضيف اليها النظر فى مصادر الادب والفن وأهدافهما ووسائل علاجهما •

فالادب والفن يستقيان من تجارب التاريخ أو من الاساطير أو من تجارب الحياة الواقعة أو من التجارب الشخصية للاديب أو من الخيال الذى يستطيع أن يخلق ما يشاكل الحياة أو يظهر أسرارها الدفينة ويجمع أبعادها المترامية ، ولكن النظر فى مصادر الاديب لا يكفى للحكم على قيمة أدبه وجدواه على مواطنيه أو على الانسانية عامة ، بل لا بد من النظر أيضا فى أهدافه لنتبين ما الذى قصد اليه من كتابة قصة أو مسرحية تاريخية أو أسطورية، وهل هدف الى مجرد بعث الماضى أو سرد أسطورة قديمة ، أم هدف الى اتخاذ الحادثة التاريخيه أو الاسطورة وسيلة للتعبير عن نفسه أو عن مشكلة من مشاكل العصر الذى تشغله فى غير افساد لحقائق التاريخ الكبرى أو تزويرها ، ومن حق الناقد عندما ينظر فى المصدر أن يتبين أى قطاع مثلا قد اختاره الاديب من واقع حياتنا المعاصرة وهل هو القطاع الذى يستحق العناية والذى يعرفه الكاتب ويحسن تصويره ودراسته أم لا ، ثم ما هو هدفه مما كتب ، وهل هذا الهدف خير أم شرير يريد أن يلعب بالغرائز وأن يستثير اليافعين باللعب على حاستهم الجنسية أو نزعاتهم الشريرة الاجرامية فحسب • ثم ان النظر فى المصادر والاهداف وحده لا يكفى بل لابد من النظر أيضا فى طريقة العلاج وأسلوبه والروح التى يصدر عنها الكاتب لنتبين هل هى روح سليمه أم مريضة وهل هى روح متفائلة أم متشائمة وهل هى روح حانية على البشر محبة لهم أم روح مريرة ساخطة • وذلك لاننا قد نقع مثلا على قصة أو مسرحية تنتهى بهزيمه الشر وانتصار الخير ولكننا مع ذلك نحس بأن أسلوبها قد كان أسلوبا داعرا مدمرا وقحا يسرف فى المباذل ويغرى بها اغراء لا يمحوه ولا يشفع له أنه قد انتهى الى ادانه هذا الابتذال ونكبته فى آخر القصه أو المسرحية ، مما يجعل الخاتمة الخيرة تنمحى أو

تكاد أمام سيل الدعارة الفاجرة الذى تخلل صفحات عمله الادبى واشتد بريقه فيها ٠

وهذا النقد الايدولوجى لايمكن فى مذهبنا أن يغنى بأية حال عن النقد الفنى الجمالى الذى يتميز به الادب عن غـــيره من الكتابات فالادب هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغتهانفعالات عاطفية أو احساساتجمالية وهوبتعريف اخر صياغة فنية لتجربة بشرية مما يحتـــم ضرورة الاهتمـــام بالصورة الادبيه التى يصب فيها الاديب مضمونه الانسانى ، وهذه الصورة ليست أمرا شكليـــا ولا نافلة بل هى الوسيلة الفعالة التى تكسب الادب مضاءه وقدرته على النفاذ الى النفوس من أيسر السبل وأقواها نفاذا ، وأعمقها تأثيرا ٠ وخصائص الصياغة تلعب فيهـــا الخصائص اللغوية وطرائق التعبير اللفظى دورا أساسيا لان للالفاظ ألوانا وأرواحا، ولا يمكنأن يسمى الاديب أديبا ما لم يكن قادرا على ادراك ألوان الالفاظ وأرواحهـــا فضلا عن الخصائص المرهفة التى تتولد من تركيب العبارات ، بحكم أن كل مركب لا بد أن تجد فيه خصائص لا تتـــوفر فى العناصر الاولية التى يتكون منهـــا ذلك المركب٠والادب أولا وقبل كل شىء فن لغوى جميل ولعلم الجمـــال اللغوى أصوله التى يجب أن يفطن اليها الاديب بفطرته التى تصقلها وتنميها ثقافته الادبية واللغوية ومطالعـــاته المستمرة لـروائع الآداب ٠

* * *

من هـذا الاستعراض السريع لتاريخ تـكون مذهبى الادبى فى النقد ، أستطيع أن أقرر أنه قد أصبح فى صـورته النهائيـــة يقـــوم على أساسين : أســـاس ايدلوجى ينظـــر فى المصـــادر والاهداف وفى أسلوب العلاج ، واساس فنى جمـــالى ينتظم فى مرحلتين أحاول دائما أن أجمـــع بينهما فى كل نقد تطبيقى أقوم به وهما المرحلة التأثرية التى أبدأها دائما بأن أقـــرأ الكتاب المنقود قراءة دقيقة متأنية لاحاول أن أتبين الانطباعات التى خلفهـــا فى نفسى ، ثم مرحلة التعليـــل والتفسير وهى المرحلة التى أحاول فيها تفسير انطباعاتى وتبريرها بحجج جمالية وفنيـــة يمكن أن يقبلها الغـــير وأن تهـــديه الى الاحساس بمثل ما أحسست به عند قراءتى للكتاب المنقود ٠ اذ من البدهى أن ذوقنا الفردى لا يمكن أن نمليه على الغير ما لم نحـاول تبريره بالحجج المنطقية السليمة التى نستمدها من ثقافتنا اللغوية والانسانيه والفنية العامة بحيث

يصبح الذوق وسيلة مشروعة للمعرفة التى تصح لدى الغير ، ومن الواجب أن يقاوم الناقد النزيه كل هوى فى نفسه وكل نزعة شخصية يمكن أن تفسد ذوقه وتجعل منه وسيلة للتضليل لا للمعرفة الحق والادراك الصحيح للقيم الجمالية والانسانية التى يبنى عليها أحكامه

ولقد يقال ان الناقد ليس من حقه أن يحاسب الاديب على مصادره وأهدافه وأنا بالبداهة لم أحاول قط أن أملى على اى اديب مصدرا دون آخر من مصادر الادب أو هدفا دون آخر أو أسلوبا دون أسلوب بل أترك له دائما حرية اختيار مصدره وهدفه ولكننى كناقد أطالب أيضا بحريتى فى أن أفضل مصدرا على اخر وموضوعا على اخر وهدفا على اخر وأسلوب علاج على اخر والا خنت رسالتى وفقدت كل ما يمكن أن يكون لى من أثر فى توجيه القراء بل والادباء أنفسهم نحو القيم السليمة والاتجاهات الخيرة التى تتطلبها حياتنا القومية أو الحياة الانسانية عامة ٠

وأما الذى أرجو أن يقينى الله شره كناقد فهو التعصب الاعمى لاتجاه بذاته نتيجة لافكار سلفية أريد أن أمليها على الادب والأدباء وذلك لأن الحجر على الفكر البشرى لا يمكن الا أن يقتله ٠ واتجاهات الفكر السليمة هى دائما تلك التى تخطط لها تضاريس الحياة ولا يمكن لأى ناقد مهما تكن قوته أن يقاوم تلك التيارات النابعة عن الحياة الجارية ووقف تضاريسها ٠

وأقبح فى نظرى من التعصبات الفكرية العمياء الاهواء الشخصية والنزوات الفردية المريضة التى تحابى وتعادى على غير أسس نزيهة من التذوق البرىء والتعليل المنطقى السليم والدراسة الموضوعية الجديه لما يتناوله الناقد من أعمال أدبية ، بل اننى لأحس مخلصا فى الفترة الاخيرة من حياتى بميل واضح الى الرفق والترفق بل والتشجيع المتزن لكافة البراعم التى أحس لديها بما يوحى بالامل ولعل مزاولتى المستمرة للتدريس بالجامعة والمعاهد العليا واتصالى الدائم بالشبان والادباء الناشئين قد كان له أثر كبير فى تقوية هذا الاتجاه فى نفسى وذلك فضلا عن أننى قد أصبحت منذ زمن بعيد والدا لأبناء استانسونى وفجروا فى أعماقى ينابيع التسامح والرفق ٠

محمد مندور

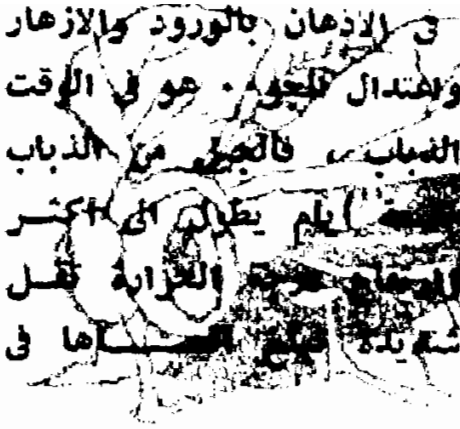

فصل الربيع الذى يقترن فى الاذهان بالورود والازهار وتفتح الطبيعة وشدو الطير واعتدال الجو .. هو فى الوقت نفسه [redacted] فيه الذباب ، فالخوف من الذباب الذى يستغرق فى [redacted] أيام يطالع الى اكثر من شهر شتاء ، وبقدوم الربيع [redacted] حيث الخزانة تقل هذه المدة ، والنتيجة [redacted] ابريل ومايو ..

أقبل الربيع.. والذباب !!

ماذا نفعل للذباب ؟

هل نغلق علينا الحجرات ونقتله بالفلت او غيره من سوائل الرش ؟

ام نرش الحوائط بالمبيدات الجديثة كال د.د.ت والجامكسان؟

ام نثبت السلك الشبكى على النوافذ والابواب حتى لا يدخل الذباب ؟

هل نكتفى بتغطية صفيحة القمامة بالمنزل ؟

ام نطالب الحكومة بحرق القمامة وتحويلهما الى سماد ؟

وماذا عن القرية ؟

هل نطالب بازالتها واقامة قرية صحية محلها ؟

هذه الحلول الكثيرة ، ويوجد كثير غيرها ايضا ، هى فى ذاتها دليل على تعقد مشكلة الذباب فهى ليست بالمسألة الهينة التى يكفى لحلها حملة صحفية تستمر اسبوعا او شهرا ولا يكفى لحلها

obeikandl.com